صانعة الكراسى

Le rempailleuse

للكاتب الفرنسى « جى دى موباسان »

ترجمة السيد فؤاد نور الدين

أقام المركيز دى برتران حفلة شائقة على نخب صيد العام الجديد . فدعا أصحابه من أهل البلد . فالتف حول المائدة عشرة رجال تصحبهم ثمانى نساء من ذوات الحسن والدلال ؛ وكان الخوان موقراً بصنوف الزهر الزكى ، وضروب الثمر الشهى ؛ وقد ألقت مصابيح الكهرباء أنوارها المتلألئة على هذه الأنواع المختلفة من الزهر والثمر والطعام ، فاجت تحتها موجاناً يستفز الشهية ويستقطر اللعاب

جلس فى صدر المائدة على مقربة من المركيزة طبيب البلدة ، وهو رجل متقدم السن ، وقور الهيئة ، يبدو على وجهه طابع الفطنة والذكاء

كانوا جميعاً يتجاذبون ألواناً ممتعة من الحديث اللذيذ والكلام الرقيق ، فلما انتقلوا إلى حوار الحب ، وماهية الحب ، انبعثت بينهم تلك المناقشة الخالدة التى يراد منها أن يفهم : هل الحب المحض يدرك قلب المرء مرة فى حياته أو أكثر ؟

فكانت تورد أمثلة لأناس نبم قلوبهم الحب الصحيح مرة فحسب ، وكانت تورد أمثلة لأناس آخرين أحبوا بعنف وقوة وهيام أكثر من مرة

كان الرجال بنوع عام يشبهون العشق بالأمراض ، فكما أن هذه تعتور جسم الأنسان دوماً ، فالعشق أيضاً يصيب فؤاده كثيرا ويكون فى كل مرة من العنف والقوة والهياج بحيث يؤثر العاشق الموت إذا ما اعترضت سبيله علة من العلل

أما النسوة فكان رأيهن يستند أكثر ما يستند على الخيال والشعر ، وينأى عن النظر والفكر . فكن يثبتن فى حماس واندفاع أن الحب المحض ، الحب العظيم لا يمكن أن ينبعث فى القلب إلا مرة فحسب ، حتى إذا تمكن منه ألهاه عن كل أمر ، فأحرقه وألهبه ، وكان فعله فيه فعل الصاعقة فى الشجر والنبت ، فكما أن هذه تحبس عنهما النمو والنشوء الجديدين ، فهذا الحب أيضاً — يجعل القلب قفراً فارغاً لا يمكن أن تنشأ فيه أحلام تشبه أحلامه الأولى ولا أن تنبت فيه مشاعر تشبه مشاعر هيامه الماضى وعهده السالف

كان المركيز يدحض هذا الاعتقاد بكل ما أوتى من ذلاقة لسان ، ومن حجة وبيان

كان يقول :

— أؤكد لكم يا سادتى أن الانسان فى مقدوره أن يعشق أكثر من مرة بكل جوارحه وبكل قواه . إنكم تعددون لى أمثلة أناس انتحروا من أجل الحب كأنهم عاجزون عن أن يعيشوا ليعشقوا ثانية . غير أنى أجيبكم : إن هؤلاء الناس لو أهملوا الانتحار وتحاشوا هذا الحمق الجنون ، لألفوا فى الحياة ما يثير الحب جديداً فى قلوبهم الجريحة ويحيى موات الأمل فى نفوسهم اليائسة ، لأن من هام عاد إلى الهيام ، ومن احتسى أولى الكؤوس عاد إلى سواها . تلك طبيعة المرء لا منصرف عنها ولا محيد

— « مهما حاولت فلن تمنى القاتل من أن يلقى جزاء ما جنت يداه ! »

— « أقسمن أنه إذن وأفعلن ما بدا لكن ! ! »

— « ولكن لا تستهزئ بحقنا المقدس فى ثنايا كلك ! »

— « أنا لا يعنينى حقكن المقدس ولا أبالى به أو يكن ! ؟ »

— « . . . . . إن رائحة الدم المسفوك . . . دم الأم المذبوحة . . . قد أتى بنا الى هنا ، ولا بد لنا من أن نقتحم هذا المأوى ونقبض على المجرم ! »

وسأحمى هذا اللائذ بى الى النهاية ! سأناضل عنه مادامت العماية تغطش أبصاركن ! انى اذا تخليت عنه ، وتركته لبطشكن ، غير مثاب ولا نادم فستضج السماء والأرض ، وتزلزل الجبال ... وتنقم الآلهة ... ويسخط الأولمب ... أغربن ... أغربن ! هيا ... يا ربات الذعر ... زادتكن السماء مسخاً ! »

(وتنطلق الجورجون ... ويغيب أبوللو)

(البقية فى العدد القادم) دريني خشبة

لما أتم المركيز خطابه وأعلن رأيه ، انحدرت الأنظار إلى الطبيب تنتظر منه الحكم الأخير . قال :

— أنا لا أخالف المركيز في رأيه ، فالهوى تتعدد فصوله تتابع طوارئه على الفؤاد . غير أني عرفت فيما عرفت هوى دام سبعاً وخمسين سنة ، وما خمدت ناره ولا انطفأ أواره إلا بالموت

قال المركيز وهو يفرك يديه :

— ترى أهذا الحب محمود ؟ وما وراءه من أمان وأحلام ؟ أي سعادة في أن يعيش المرء خمساً وخمسين سنة على غرام واحد ؟

فابتسم الطبيب ابتسامة خفيفة وهو ينظر الى المركيزة :

— ان الشخص الذي أتاح له القدر أن يكون معشوقاً طوال هذه المدة كان رجلا وأنتم تعرفونه جميعاً ، هو السيد شوكه صيدلي الناحية . أما المرأة العاشقة فلستم تجهلونها أيضاً ، هي صانعة الكراسي العجوز التي كانت تفد أحياناً إلى القصر ها هنا :

بدت على وجوه النسوة ملامح الدهش ودلائل الاشمئزاز ، كأنما الحب لا ينبغي أن يصيب فيما يصيب إلا المخلوقات المترفة المتميزة التي تستحق وحدها أن يبدي الناس لها عطفا واهتماماً

قال الطبيب :

— منذ ثلاثة شهور دعيت إلى جانب هذه العجوز وهي على فراش الموت ، وكانت قدمت في عربتها التي اتخذتها مسكناً لها وآلة ركوب تطوف البلدان عليها . يجر هذه العربة فرس مهزول ناحل لاشك أنكم رأيتموه . ويصحب العجوز كلبان أسودان هما صديقاها وحارساها . كانت دعت القسيس أيضاً لتكشف لنا عن رغباتها الأخيرة فتكون منفذين لوصيتها . فقصت علينا جميع أطوار حياتها . الحق انني لم أسمع قصة أشد تأثيراً في النفس وأكثر غرابة في الأذن من قصتها . كانت حرفة والديها صنع الكراسي . ولم يكن لها سكن خاص في أرض معينة ، فانها طفلة كانت تطوف البلدان ممزقة الثياب معتلة الجسم يثير منظرها نفوراً واشمئزازاً . وكان أبواها كلما بلغا إحدى القرى وقفا عند مدخلها وأنشآ يصلحان الكراسي العتيقة والمقاعد القديمة تحت ظل الأشجار وهي تتدحرج لاعبة ضاحكة خلال أعواد العشب المشرئبة . فاذا ابتعدت قليلا عنهما أو أخذت في الحوار مع الصبية ، فانها لا تلبث أن تسمع صوت أبيها الغضب يقول لها : « ارجعي بأوقة » . فكانت هذه الجملة ، الجملة الوحيدة التي تسمعها من أبيها

ولما ترعرعت بعض الشيء أرسلاها تلتقط أو تبتاع ما فسد من المقاعد . فكانت في تنقلها من مكان الى مكان تتعرف إلى الصبيان وتأنس إلى الحديث اليهم . على أن ذويهم كثيراً ما صدوها عنها وهم ينتهرونهم أشد الانتهار ، ومنهم من كان يقول لولده : « ألا اقطعن الكلام مع هذه الشريدة الحافية الأقدام »

أما الفتية الصغار فما أكثر ما قذفوها بالحجارة من غير أن ينبس فوها بكلام ! وكان بعض النسوة أعطينها قليلا من دراهم ، فاحتفظت بها وحرصت عليها

وبينما كانت تجوز هذا البلد في أحد الأيام وقد بلغت الخامسة عشر ربيعاً من عمرها ، إذ صادفت خلف القبرة شوكه الصغير وهو يبكي أحر البكاء ، لأن رفيقاً له سرقه درهمين . فآلمها وهي البنت المسكينة ، أن ترى طفلاً حضرياً يذرف دموعاً سخينة من حيث لا مواسي له ولا صديق . فدنت منه وما كادت تقف على سر بكائه حتى وضعت في يديه تلك الدراهم القليلة التي احتفظت بها . وكان طبيعياً أن يبتهج الطفل بالدراهم فأخذها ومسح دموعه . وكان منها أن جنت فرحاً بعمله ، فأنشأت تعانقه وتضمه إلى صدرها وتقبله تقبيلاً حاراً دون أن يمانع الولد أو يصدها عنه لأنه كان لاهياً بفحص النقود

ثم انصرفت عنه وقد فاض قلبها محبة لهذا الطفل

ولم يكن أحد يعلم ماذا جال في رأس هذه الناعسة من خواطر وأحلام ، أتعلقت به لأنها منحت في سبيله بثروتها المتجمعة من التشرد والانتقال ، أم لأنها منحته أول قبلة وثب قلبها لها ؟

خفي ذلك على الصغار والكبار

وظلت أشهراً تتمثل في خاطرها زاوية القبرة التي شهدت فيها هذا الغلام وشرعت تسرق أبويها ما تصل إليه يدها من دراهم أملاً في لقائه ومصادفته . وكان في يدها آخر الأمر فرنكان . على أنها هذه المرة بدلاً من أن تلمح فتاها في محل منزل ، رأته خلف قضبان حانوت أبيه : بهي الطلعة نظيف الثياب ، والقناني

الحمراء والخضراء والصفراء تحيط به من كل جانب . فازدادت له حباً وبه كلفاً ، وبهرها ما أنفت لديه من مجد بادٍ في هذه المياه المصبوغة ، ومن جلال ظاهر في هذه الزجاجات البراقة

فاحتفظ خاطرها بذكراه مدة ، حتى صادفته في السنة التالية خلف المدرسة يلعب مع رفاقه ، فهجمت عليه وقالته تقبيلاً عنيفاً ريع له الولد وأخذ في الصراخ . لكنها سرعان ما وضعت في يده ثلاثة فرنكات هش لها الغلام وطرب ، وحملق في وجهها في دهش وتعجب تاركا نفسه لها تداعبه ما رغبت في المداعبة ، تعانقه ما اشتهت من عناق

وظلت أربع سنوات تقدم اليه ما تجمعه فيأخذه منها مقدماً اليها القبلات عن رضى وسرور . أعطته مرة فرنكين ومرة خمسة فرنكات ، وهي قطعة كبيرة جعلته يضحك لها ويرقص طربا

لم تكن تفكر إلا فيه ؛ أما هو فكان ينتظر عودتها ويرقب شخوصها اليه بصبر فارغ وشوق لجوج ، حتى إذا أبصرها ، جرى اليها مسلماً خده لقبلاتها ، ويده لدراهمها . وما أشد خفقان قلبها عند ذاك !

وتوارى الغلام حقبة من الزمن عن عيانها لأنه انتقل الى مدرسة أخرى . وعرفت هي انتقاله بمهارة وحذق ، فأبلت في السياسة بلاء حسناً حتى حملت أبويها على المرور من هنا في الصيف . وكان مضى عليها سنتان دون أن تراه . فلما أبصرته كادت لا تعرفه . لأنها رأت أمامها بدلا من طفل الأمس فتى تفتحت ورود الصبا في وجهه ، وابتسمت زهور اليفاعة في قده

نظرت اليه نظرة شوق ولهف . وكان منه أن تظاهر بعدم رؤيتها ، ثم خطا أمامها ببزته الأنيقة ذات الأزرار الذهبية يملأ صدره زهو وافتخار ، ويعلو رأسه أنفة واستكبار

وانصرفت عنه والدموع تسح من عينيها والزفرات تتصاعد من قلبها . وأصبحت بعد ذاك المهد أليفة أحزان ، وصديقة آلام

وانطوت الأعوام متوارية خلف حجاب الفناء ، وفتاتنا لا تنقطع عن الشخوص كل عام إلى بلده لتراه دون أن تجرؤ هي على تحيته ، ودون أن يتنازل هو بإلقاء نظرة عليها

كانت تهواه بكل جوارحها ، وها كم ما أسرته لي « إن هذا الرجل يا سيدي الطبيب ، الرجلُ الوحيد التي رأته عيناي ، وما علمتُ بعد ذاك إذا كان يعيش في العالم سواه »

وماتت أبواها واستمرت في حرفتهما ، وقد صحبت من ب… بدلا من كلب واحد ، كلبين هائلين يُخشى الدنو منهما

وكان يوم دخلت فيه هذا البلد ، فرأت امرأة في نض… الصبا وربيع الحياة تصحب شوكه حبيبها ، وقد تأبطت ذر… وهما يخرجان من الحانوت معا

لقد تزوج إذن شوكه !

وفي مساء اليوم ألقت نفسها في الغدير القائم خلف المح… واتفق أن رجلا كان يمر هناك ، فأنقذها وقادها إلى منزل شو… فنزل هذا لعلاجها ، ودلك بيديه مكان الألم من جسمها د… أن يتظاهر بمعرفتها . ثم ما لبث أن قال لها بصوت جاف « أأنت مجنونة ؟ لا ينبغي أن تكوني هكذا حيواناً »

هذه الجملة وحدها بعثت فيها البرء والشفاء . ألم يتكلم الي… حسبها ذلك ! وظلت هانئة مغتبطة أمداً طويلا

قضت كل حياتها تذكر شوكه ولا تفكر في غيره . وكا… تلمحه في سنيها خلف الزجاج ، وما أكثر ما ابتاعت عقا… وأدويته لاتبغي من شرائها إلا رؤيته والحديث اليه

وكما ذكرت لكم بديًّا ، ماتت هذا الربيع وقد رجتني أن قصت عليَّ قصتها أن أحمل الى هذا الذي أحبته حب اله لميوده ، جميع ما ادخرته من مال . لأنها كما اعترفت لم تشت… إلا لأجله ، تجوع أحياناً لتدخر له بعض المال . فإنْ ذكر… بعد وفاتها مرة واحدة فستشعر في قبرها بالسعادة والهناءة

أعطتني عشرين وثلاثة وألفين من الفرنكات . فقدمـ… العشرين فرنكا الى القسيس لأجل دفنها ، وأخذت الباقي… فاضت روحها ، وقصدت منزل شوكه ، فلما دخلت كان وزو… يتناولان طعام الغداء وقد جلس الواحد أمام رفيقه ، والاحمر… يكسو وجهيهما ، والسعادة تسيل عليهما ظلها الوارف وينشر… الطافح . طلبا إليَّ الجلوس فجلست ، وقدما لي كوباً من مشرو… (الكيرسك) (١) فتناولته شاكراً وبدأت أنقل لهما القص… بصوت مضطرب حزين ، لأني زعمت أنهما سيبكيان ويحزنان على أن شوكه ما كاد يفهم أن هذه الأفاقة الشريدة تضمر له حـ…

(١) Kirsck يصنع هذا المشروب من عصير الكرز

ولاء حتى جن جنونه وثارت ثائرته وشرع يثب من السخط الغضب كأنما سلبته المسكينة من المجد والشهرة ، ومن العزة والشرف شيئاً كثيرا . أما زوجه فكانت تصيح والغيظ يملؤها : يالها من نذلة ! يالها من نذلة ! »

ثم نهض شوكه وألقى بقبعته على الوسادة وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً كأنه أحد المجاذيب وكان يتمتم : « أو يمكن هذا يا دكتور ؟ إن ذا لشيء فظيع ! ما العمل ؟ يا ليتني عرفت الأمر في حينها ! فلكنت أسوقتها سوقاً إلى السجن بقوة الدرك »

فلبثت أنا كالمشدوه مما سمعته أذناي ورأته عيناي لا أدري ماينبغي لي من قول ومن عمل . على أنني عقبت كلامي : « سيدي إنها أوعزت إليّ أن أحمل اليك ما تركته من نقود ، وقدرها ثلثمائة وألفان من الفرنكات . ولما كان ما نقلته لك من حديثها قد أثار فيك سخطاً وسوءاً ، فلعل من الخير أن تهب النقود بعض الفقراء والمساكين »

نظرا وقد أفقدتهما الحيرة كل حركة !

فأخرجت المال من محفظتي ، هذا المال المتجمع من بلدان عديدة والمدخر من جميع النقود من ذهب وفضة وغيرها . وسألته قائلا : « ماذا عزمت ؟ »

قالت السيدة شوكه : « ما دامت رغبة المحتضرة الأخيرة تقضي بذلك . فأرى من الصعوبة رفض إرادتها »

وقال الزوج واحمرار الخجل باد عليه : « إن هذا المال ينفعنا في اقتناء بعض الحاجات لأطفالنا »

قلت عند ذلك بصوت جاف : « كما تشاء »

قال : « هاته ما دامت أوعزت اليك ذلك . فلن تعوزنا الوسيلة في إنفاقه إنفاقاً جميلا »

فقدمت اليهما الدراهم وصافحتهما وانصرفت

وجاءني شوكه في غد اليوم ، وابتدرني قائلا : « هذه المرأة تركت عربتها ، ماذا فعلت بها ؟ » . قلت :

— لا شيء ، خذها إذا أردت . قال :

— إنها تنفعني ؛ سأجعل منها كوخاً لحديقتي

وهم بالانصراف فناديته قائلا : « إنها تركت أيضاً فرسها وكلبها ، ألا تريدها ؟ فوقف مندهشاً وقال : « آه ! كلا ، لا حاجة بي اليها ، ما أصنع بها ؟ خذها أنت . » وأخذ يضحك ومد يده إليّ فصافحته بمودة ، إذ لا ينبغي للطبيب والصيدلي أن يكونا عدوين

احتفظت بالكلبين ، أما الفرس فقدمته إلى القسيس ، وأفاد شوكه من العربة كوخاً لحديقته ، وابتاع بالنقود خمسة أسهم في الخط الحديدي

هذا هو يا سادتي الحب العميق المحض الذي صادفته في حياتي وصمت الطبيب

فأخرجت المركيزة من صدرها آهة حبيسة ، وقالت والدموع تتلألأ في عينيها :

« الحق أن النساء وحدهن يعرفن الحب ! »

(حلب) فؤاد نور الدين